تذكر منزلك بعد الموت

أزهري أحمد محمود

مصدر هذه المادة :





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تعالى بصر بالحق فهدى.،. وأعطى فأغنى، والصـلاة والسلام على النبي الداعي إلى الهدى. وعلى آله وأصحابه أعـلام التقى.

وبعد: لا يزال الخلائق غادين ورائحـين إلى ذلـك المصـير المكتوب.. وذلك المنزل المورود! القبر! دار البلى.. ومستقر الورى!

إن القبـــور ســـجون
مـــا مثلـــهن ســـجون
كـــم في القبـــور قـــرون
ممـــن مضـــى وقـــرون
مـــا في المقـــابر وجـــه
عـــن التـــراب مصـــون

قال أبو عبيدةَ الخواص عند قبر: «حتى متى تشـيع غاديًـا أو رائحًا إلى ربه؟! تجعله في لحد، وتحثي عليه التراب، أم والله لتكوننه عن قريب»!

القبر! يا له من منزل، ما أوعظه لأولي الألباب! ويا لـه مـن حفرة ما أزجرها لأهل الصواب!

وها هي رسومه بادية للعالمين.. وأطلاله ظـاهرة للخلائـق أجمعين!

*** فماذا أعددت له أيها المذنب؟!**

يا من استأنست بشهوات النفس.. وأخلـــدت إلى رغائبـــها! أعلمت أن المصير إلى حفرة يـــا لبـــؤس ســـاكنها إن لم يمهـــدها بالصالحات؟!

تابعت النفس اللجوج.. وعما قليل ليأتينك الخبر اليقين!

أيها المسكين! ماذا أعددت لبيت الوحشة.. ومثوى الدود؟!

قال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه: «يا فلان، لقد أرقت الليلة، أتفكر في القبر وساكنه، وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثـــة في قبره؛ لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به! ولرأيت بيتًا تجول فيه الهوام! ويجري فيه الصديد! وتخترقه الديدان! مـــع تغـــير الريح! وبلى الأكفان! بعد حسن الهيئة، وطيـــب الـــريح، ونقـــاء الثوب»! قال: ثم شهق شهقة خر مغشيًا عليه!

*** أيها المذنب! احذر فظاعة المثوى!**

غدًا يثوى الجميع إلى حفرة يبين فيها السعيد مـــن الشـــقي.. منزل يسعد فيه السعداء.. ويشقى في غمراته التعساء!

القبر! ما أفظع كرباته! وما أشد محنه!

كم من مجندل تحته! وكم من مكروب بين أركانه!

فهل تذكرت – أيها المذنب – فظاعـــة المثـــوى.. ووحشـــة الفراش؟!

قال رسول الله ﷺ: «**ما رأيت منظرًا قط إلاَّ والقـــبر أفظـــع**

منه»! [رواه الترمذي وابن ماجه/ صحيح ابن ماجه للألباني: ٤٣٤٣].

أيها المذنب! هل تذكرت المبيت بين أطباق لحـــدك؟! كيـــف سيكون المنزل يومها؟! يا لله! ما أوحش المبيت! وما أخشن المنزل!

قال أنس بن مالك ﷺ: «يومان وليلتان لم تســـمع الخلائـــق بمثلهما: يوم تأتيك البشرى من الله تبارك وتعالى؛ إما بعذابه، وإمـــا برحمته! ويوم تُعطى كتابك؛ إما بيمينك، أو بشمالك! وليلة تبيت في القبر وحدك، ليلة لم تبت مثلها ليلة! وليلة صبحتها يوم القيامة، ليس بعدها ليل».

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر؛ يقـــول: «مـــا أحسن ظواهرك، إنما الدواهي في بواطنك».

فتذكر – أيها المذنب – تلك الدواهي.. وهل تطيق صبرًا أيها المسكين على فظائه اللحود.. أو هل ستجد يومها خلاصًـــا مـــن مواكب الدود؟!

ضعوا خدى علـــ، لحـــدى ضـــعوه
ومنـــه عفـــ التـــ اب فوســـدوه

وشـــقوا عنـــه أكفانـــا ، قاقًـــا
وفى الـــ مس، البعيـــد فغيبـــوه

فلـــو أبصـــ تموه إذ تقضـــت
صـــبيحة ثالـــث أنك تمـــوه

وقـــد ســـالت نـــواظ، مقلتيـــه
علـــ، وجناتـــه وانفـــض، فـــوه

ونـــاداه البلـــى هـــذا فـــلان
هلمـــوا فـــانظروا هـــل تعرفـــوه
حبيـــبكم وجـــاركم المفـــدى
تقـــادم عهـــده فنســـيتموه

*** أيها المذنب! تذكر بيت الوحدة!**

يا غافلاً عن ضجعة القبور! ويا لاهيًا عن منازل الثبور!

تذكر بيت الوحدة.. ودار البلى والوحشة!

غفلت أيها المسكين عن المثوى بين اللحود.. وشغلتك الشهوات عن مراتع الدود!

أيها المذنب! ها هم الصالحون يتذكرون ذلك المنزل الفظيع! وتُمتلأ أفئدتهم جزعًا وهم يذكرون ذلك المثوى!

* عن وهيب بن الورد قال: «نظر ابن مطيع يومًا إلى داره فأعجبه حسنها، فبكى، ثم قال: «والله لولا الموت لكنت بك مسرورًا، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور؛ لقرت بالدنيا أعيننا»! ثم بكى بكاء شديدًا، حتى ارتفع صوته!

* وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض مدائن الشام: «أما بعد: فكم للتراب في جسد ابن آدم من مأكل! وكم للدود فيه من طريق مخترق! وإنِّي أحذركم ونفسي – أيها الناس – العرض على الله عز وجل»!

* وعن أبي معاوية قال: «ما لقيني مالك بن مغول إلا قال لي:

لا تغرنك الحياة، واحذر القبر، إن للقبر شأنًا»!

* وعن امرأة هشام الدستوائي، قالت: كان هشام إذا طفـــئ المصباح؛ غشيه من ذلك أمر عظيم، فقلت له: إنه يغشاك أمر عظيم عند المصباح إذا طفئ! قال: إني أذكر ظلمة القبر! ثم قال: «لو كان سبقني إلى هذا أحد من السلف، لأوصيت إذا مـــت أن أجعـــل في ناحية من داري»!

أيها المذنب! إن في خبر هؤلاء القوم؛ عظة لك.. وتنبيهًا مـــن الغفلة.. فما أحراك أن تفيق من سكرة الشهوات.. وأنـــت تقـــف على خوف الطائعين! إذ أن أهل الطاعات أقرب إلى السلام مـــن أهل الذنوب.

* أيها المذنب! إياك والغفلة عن تمهيد قبرك!

القبر! يا له من مضجع خشن إن لم تمهِّدهُ بالصالحات! ويا له من شرور ونيران إن لم ترحل إليه بالطاعات!

وكم من غافل ألهته الشهوات عن إعداد دار مقامه! فهـــو في شغل شاغل عن التهيؤ لبيت الوحشة والدود!

حقًا! كم هو مغرور.. خاسر من غفل عن إعداد منزل قراره بعد الموت! وبينما الغافلون مشغولون بالدنيا؛ إذ باغتـــهم هـــادم اللذات! فرحلوا عن غير زاد.. فنزلوا مساكن يا الله! ما أفظعها!

قال يحيى بن معاذ: «يا ابن آدم! دعاك ربك إلى دار الســـلام، فالنظر أين تجيبه؟! إن أجبته من دنياك، واشتغلت بالرحلـــة إليـــه؛

دخلتها، وإن أجبته من قبرك؛ منعتها»!

وعن عبيد بن عمير، قال: «ليس من ميت يمـــوت إلا نادتـــه حفرته التي يدفن فيها: أنا بيت الظلمة، والوحدة والانفراد! فـــإن كنت في حياتك مطيعًا؛ كنتُ اليومَ عليك رحمةً، وإن كنت لربك عاصيًا؛ فأنا اليوم عليك نقمةٌ! أنا البيت الذي من دخلني مطيعًـــا؛ خرج مسرورًا، ومن دخلني عاصيًا؛ خرج مني مثبورًا»!

أيها المذنب! ما بالك مبادرًا إلى شهواتك.. ساعٍ في رغبـــات النفس.. مشيِّدًا دارك الفانية؟!

أما ترى داعي المنون يختطف النفوس اختطافًا؟!

أما ترى الخلائق راحلين إلى الدار الأخرى؟!

أفق أيها المسكين! قبل أن تنزل دارًا يا ويل الراحلين إليها بغير الصالحات!

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُـــونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ١-٤].

قال عبد الله بن العيزار: «لابن آدم بيتان: بيت على ظهـــر الأرض، وبيت في بطن الأرض، فعمل للذي على ظهر الأرض، فزخرفه وزينه، وجعل فيه أبوابًا للشمال، وأبوابًـــا للجنـــوب، وصنع فيه ما يصلحه لشتائه وصيفه، ثم عمد إلى الذي في بطـــن الأرض؛ فأخربه، فأتى عليه آت، فقال: أرأيت هذا الذي أراك قد أصلحته، كم تقيم فيه؟! قال: لا أدري! قال: فالـــذي قـــد

أخربته، كم تقيم فيه؟! قال: فيه مقامي؟! قال: تقر بهذا علــى نفسك، وأنت رجل يعقل»!

*** أيها المذنب! إنه بيت الظلمة!**

ظلام القبور! يا الله! ما أشده من ظلام!

فماذا أعددت – أيها الضعيف – لهذا الظلام؟!

ظلام القبور؛ لا يعرفه إلا من نزل تحت أطباق الثــرى.. وذاق كأس الردى!

ظلام القبور لا تنيره السرج.. ولا يكشف عن جحافل ظلماته أنواع المصابيح!

إنه ظلام لا يضيئه إلا صالح الأعمال.. ولا يكشف سواده إلا الصالحات!

عن سليم بن عامر، قال: «خرجنا في جنازة على باب دمشق، ومعنا أبو أمامة الباهلي، فلما صلى على الجنازة، وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تغنمــون فيــه الحسنات والسيئات، توشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهــو هذا – يشير إلى القبر – بيت الوحشة! وبيــت الظلمــة! وبيــت الضيق! إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى يوم القيامة»!

أيها المذنب! احذر يوم نزولك في حفرة لا يضيء ظلامها إلا نور الطاعات! حفرة شديدة الأهوال.. فظيعة النكال!

فاعمل أيها الغافل لنجاتك.. قبل أن لا تنجو!

قال نصر بن محمد السمرقندي: «من أراد أن ينجو من عذاب القبر؛ فعليه أن يلازم أربعة أشياء، ويجتنب أربعة أشياء، أما الأربعة التي يلازمها: فمحافظة على الصلوات، والصدقة، وقراءة القــرآن، وكثرة التسبيح، فإن هذه الأشياء تضيء القــبر، وتوســعه، وأمــا الأربعة التي يجتنبها: فالكذب، والخيانة، والنميمة، والبول».

*** تذكر ضمة القبر!**

ضمة القبر! يا لها من ضمة! أيُّ جسدٍ يطيقها؟!

غفل الغافلون عن شدة لحظاتها.. وساعة كرباتها!

ويا للشدة يومها بعد أن قال رسول الله ﷺ: «**هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبوال السماء، وشهده سبعون ألفًــا مــن الملائكة، لقد ضم ضمة، ثم فرج عنه**». **[رواه النســائي/ صــحيح النسائي لألباني: ٢٠٥٤]**.

لقد قال النبي ﷺ ذلك في سعد بن معاذ ﵁ صاحب الفضائل المشهورة.. والمناقب الظاهرة.

عن نافع أنه لما حضرته الوفاة، جعل يبكي، فقيل: ما يبكيك؟! فقال: «ذكرت سعدًا وضغطة القبر»!

فتذكر – أيها المسكين – ذلك اليوم.. وخذ لتلك اللحظــات عدها.. وفر إلى الله تعالى.. عسى أن تكتب النجاة.

ولــــدتك إذ ولــــدتك أمــــك باكيًــــا
والقــــوم حولــــك يضــــحكون شــــرورًا

فاعمـــــل ليــــوم أن تكــــون إذا بكــــوا
في يــــــوم موتـــــك ضـــــحكًا مســــــرورًا

*** أيها المذنب! كيــف أنــت إذا تفــرق عنــك الأهــل والأصحاب؟!**

إنه يوم نهايتك فيه مع أهلك وأحبابــك؛ إذ أهــالوا عليــك التراب! فيسلمونك بعدها إلى ضيق اللحود.

فيا الله! ما أشدها من لحظات عليك أيها المسكين.

فبينما أنت مشغول بكربات القبر وشـــدائده.. إذا بأهلـــك مشغولون باقتسام ميراثك،

جفت الدموع بعد البكاء وتقادم العهد بعد التذكر! وســـلام الحبيب بعد الجزع!

قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما يومًا لعبيد بن شرية الجرهمي: أخبرني بأعجب شيء رأيته؟! قال: إني نزلت بحــي مــن قضاعة، فخرجوا بجنازة رجل من بني عــذرة، يقــال: حريــث، وخرجت معهم، حتى واروه في حفرته؛ تنحيت جانبًا عن القــوم، وعيناي تذرفان بالبكاء، ثم تمثلت بأبيات من الشعر كنت أرويهــا قبل ذلك بزمان طويل:

اســــتقدر الله خـــيرًا وارضـــينَّ بِـــهِ
فبينمـــــا العســـــر إذ دارت مياســــــير

وبينمـــا المـــرء في دنيـــاه مغتبطًـــا
إذا صـــار في الـــرمس تَغْفُـــوه الأعاصـــير
يبكـــي الغريـــب عليـــه لـــيس يعرفـــه
وذو قرابتـــــه في الحـــــي مســـــرور

قال: وإلى جانبي رجل يسمع ما أقول، فقال لي: يا عبـــد الله، هل لك علم بقائل هذه الأبيات؟! قلت: لا، والله، إلا أني أرويهـــا منذ زمان. فقال: والذي يحلف به، إن قائلها لصاحبنا الذي دفنـــاه آنفًا الساعة! وهذا الذي تراه ذو قرابته، أسر الناس بموته، وأنـــت الغريب تبكي عليه كما وصفتَ.

فعجبت لما ذكر في شعره، والذي صار إليه من قولـــه، كأنـــه ينظر إلى مكانه من جنازته، فقلت: إن الـــبلاء موكـــل بـــالمنطق. فذهبت مثلا!

*** أيها المذنب! القبر حاجز بينك وبين الصالحات!**

يا مغرورًا بأيامه! ومشغولاً بلذاته! هـــل شـــعرت أن قـــبرك صندوق أعمالك؟! وهل شعرت – أيها المسكين – أنك إذا دخلته؛ كأن حاجزًا بينك وبين الرجوع إلى الدنيا؟!

أيها المذنب! إن التوبة اليوم ممكنة.. وإن الرجـــوع يســـير.. فاحذر العوائق! احذر أن تنزل قبرك بغير زاد!

فما أكثر الحسرات يومها.. وما أكثر النادمين.. ولكن بعـــد فوات الأوان!

عن الفضل الرقاشي أنه كان يقول في كلامه إذ ذكــر أهــل القبور: «يا لها من وجوه حيل بينها وبين السجود لله عز وجل، لو يجدون إلى العمل مخلصًا بعد المعرفة بحسن الثواب؛ لكانوا إلى ذلك سراعًا! ثم يبكي، ويقول: يا إخوتاه! فأنتم اليوم قد خلــي بيــنكم وبين ما عليه ترجون إليه فكاك رقــابكم، ألا فبــادروا المــوت، وانقطاع أعمالكم، فإن أحدكم لا يدري متى يخترمه ليلاً أو نهارًا»!

وقال أبو وهب محمد بن مزاحم: «قام رجل إلى ابن المبارك في جنازة، فسأله عن شيء، فقال له: يا هذا، سبِّح، فــإن صــاحب السرير منع من التسبيح»!

أيها المذنب! كم من مقبور تحت الثرى تسبيحة واحدة خير له من الدنيا وما فيها!

وما أسهل ذلك وأنت حي.. وفي فسحة من أمرك.. وما أزهد أهل القبور عن حطام أهل الدنيا الفاني!

مر بعض السلف بالمقابر، فقال: «أصبح هؤلاء زاهدين فيمــا نحن فيه راغبون»!

وتذكر – أيها المذنب – أن الأعمال الصالحة؛ أنــيس أهــل الطاعات في قبورهم.. فما هو أنيسك يومها؟!

فما أحوجك يومها إلى أنيس يــؤنس وحشــتك في بيــت الوحشة!

قال يزيد الرقاشي: «بلغني أن الميت إذا وضع في قبره؛ احتوشته أعماله، فأنطقها الله تعالى، فقالت: أيها العبد المنفـــرد في حفرتـــه، انقطع عنك الأخلاء والأهلون، فلا أنيس لك اليوم غيرنا»! قـــال: ثم يبكي، ويقول: «طوبى لمن كان أنيسه صالحًا، طوبى لمن كـــان أنيسه صالحًا، والويل لمن كان أنيسه وبالاً»!

أيها المذنب! ما أقرب الرحيل! فإنك لا تدري متى تنـــزل في حفرتك.. فتهيأ لها.. وبادر إلى التوبـــة الصـــادقة.. وســـارع إلى الصالحات قبل أن يُحال بينك وبينها! واتعظ بمن مضى قبلك على درب المعاصي.. فإياك أن تهلك كما هلك!

والحمد لله تعالى.. وصـــلى الله وســـلم علـــى الـــنبي وآلـــه والأصحاب..

أزهري أحمد محمود

الرياض ١١٤٦٥ ص ب ٢٠٨٤٦